المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:08، العدد:03 (2024)، ص109-120

التنوع المعرفي لمضمون المصادر الجغرافية حول تاريخ المغرب الأوسط

Cognitive diversity of geographical sources contents about middle Maghreb

نذير برزاق
جامعة قسنطينة 02 (الجزائر)
nadir.berzag@univ-constantine2.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/09/30
تاريخ القبول:
2024/11/25

الكلمات المفتاحية:
- ✓ كتب الجغرافيا
- ✓ مجالات البحث التاريخي
- ✓ المغرب الأوسط
- ✓ العصر الوسيط

الملخص:

وثّقت المصادر الجغرافية معالم مدن المغرب الأوسط (الجزائر) من نواحي عدّة، أين تضمنت الكثير من المعطيات التاريخية حول مختلف الأنشطة الاقتصادية والأحوال الاجتماعية والأوضاع السياسية، مع بعض الإشارات للنشاط الثقافي، بالإضافة إلى رصد الظروف المناخية والإمكانيات الطبيعية وهي سمة المدونة الجغرافية.

إذ نهدف إلى معرفة الدور الحضاري لبعض المدن الجزائرية كنماذج كما صوّرتها كتب الجغرافيا والبلدان، وهذا بتتبع أخبارها بأمد طويل ممتد من ق3هـ/9م إلى غاية ق10هـ/16م. ومما خلصنا إليه أنه تباينت منهجية الجغرافيين بين الوصف الإجمالي والوصف التفصيلي، كما طغى رصد الوضع الاقتصادي مقارنة بالمجالات الأخرى، لكن المدونة الجغرافية ذات حمولة مثقلة من المعطيات تُمكّن الباحث من تشكيل صورة عن بعض الأحداث والتطورات التاريخية.

Article info

Received:
30/09/2024
Accepted:
25/11/2024

Key words:
- ✓ Geography books
- ✓ Fields of historical research
- ✓ Central Maghreb
- ✓ The middle era

Abstract:

The Geographers recorded many historical facts about economic, social and others.They also mentioned climate conditions and nature potentialities ,these were the core concern of geographic books. The geographer's methodology of distinction was present to make difference between rural and urban side since differences existed between them.

So, what was the value of geographic resources in displaying the towns' civilisational aspect in economic, social and others ? Our aim in this article is to know the aspects of some Algerian towns as examples during the 3rd hijiri century (9th century BC) and the 10th hijiri century (16th century BC) .We came to the conclusion that geographer's methodology differed in general and detailed description. The economic situation was dominant comparing to other fields, however, these historical information let searchers make an image of some events and historical evolution.

مقدمة

حين يسبر الباحث أغوار المدونة التراثية في حقل الجغرافيا وكتب البلدان سيدرك أنها من أهم المدونات التي تمدّ المؤرخ زوايا قراءة ثرية ومتنوعة للمعطيات التاريخية، وتقدم مفاتيح المساعدة للباحثين وتفتح باب المعرفة التاريخية لمختلف المدن المؤرخ لها، أين تعطينا بعضا من محطات الدورة الحضارية لها على نمط فكرة ابن خلدون؛ فتستعرض مراحل نشوء الحواضر بدءا من تأسيسها وذروة نشاطها وقوة سلطتها ثم سقوطها ومآلها.

حيث يغلب الطابع الجغرافي على منهجية الجغرافيين نظرا لخصيصة هذا النوع من التصانيف، ما يجعل مضمونها يُغطي بإسهاب الموقع الجغرافي للمجال الذي يساعد بدوره في توفير كل ظروف الوجود من أسباب الحياة والانتعاش وصلاحيتها للعمران، وهذا ما نعثر عليه في مختلف المدونات الجغرافية المشرقية والمغربية بدءا من اليعقوبي (ت284هـ/897م) إلى غاية الوزان (حي 957هـ/1550م).

ونحاول من خلال هذه الورقة العلمية تقديم أبرز الخصائص التي تضمنتها كتب الجغرافيا والبلدان في لججها؛ أين ضمّت في ثناياها العديد من الأحوال الطبيعية والمظاهر البيئية والأخبار التاريخية؛ على الرغم من أن غالب الأمر عليها ومما هو معروف عنها اهتمامها برصد المظاهر الجغرافية المتعلقة بالمناخ والتضاريس والحدود والثروات وغيرها، وبالتنقيب في لججها يتضح للباحث عن مضامين مهمة غير مقتصرة عن الوصف الجغرافي والتركيز فقط على مما له صلة به وهو شق الإمكانيات الاقتصادي، بل تقدّم مادة دسمة عن الأحوال الاجتماعية للأجيال المتعاقبة وأوصافهم الخَلقية والخُلُقية، كما تقف عند أخبار الدول المتعاقبة على ذاك المجال وسُلطها السياسية المتحكمة، ونال أيضا الشق الثقافي نصيبه من توثيق بعض المظاهر من علوم وعلماء يُنتسبون إلى ذاك المجال محل التدوين الجغرافي.

وكل هذا يساعد الباحثين في رسم الوضع العام آنذاك وما قبله وبالخصوص أثناء تتبع المادة الجغرافية بعد تزمينها لمعرفة الثابت والمتحول الطارئ عبر أمد طويل على مجال المعاينة والمشاهدة أو حتى النقل من الجغرافيين السابقين. **فما أهمية المدونة الجغرافية في معرفة الوضع التاريخي لمدن المغرب الأوسط بمختلف مجالات البحث فيه اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا؟**

1. المعطيات التاريخية الاقتصادية

تَضَمّن متن المصادر الجغرافية الكثير من المعلومات التاريخية في مختلف المجالات المشكلة للمجتمعات، فحاول الجغرافيون تتبع النشاط الاقتصادي لكل حاضرة على حدى، بالإضافة إلى المعطيات الاجتماعية، وما يتعلق بالأخبار السياسية، وكذا النشاطات الثقافية.

إذ نال الشق الاقتصادي النصيب الأكبر من رصد الجغرافيين نظرا لتلازم الطبيعة والأحوال الجغرافية مع الوجود الإنساني، مما يستدعي من الإنسان التفكير مليّا في كيفية الحفاظ على كينونته، فلطالما وجهت الجغرافيا التاريخ، ولهذا ركّز الجغرافيون على إبراز ما هو من صلب الطبيعة وخيراتها من دون تدخل الإنسان فيها، وما اجتهد فيه الإنسان من استثمار للمقدرات التي هي في مدار عيشه.

فكان مما ركّزوا عليه هو تبيان المنتوجات الزراعية وحركة التجارة والصناعات الإبداعية التي تميّزت بها حاضرة عن باقي الحواضر، وهو ما يفتح باب استقطاب التجار من مختلف الأصقاع للاستثمار، الأمر الذي يجلب عائدات مادية للساكنة وللسلطة أيضا، وفي هذا الصدد ذكر ابن حوقل (ت380هـ/990م) الغالب عن منتوج مدينة تنس؛ أين ضمت أحسن الفواكه نظرا لجودة نوعية التربة التي وصفها بالخصوبة، وهو ما جعلها تكون مقصدا هاما للتجار الأندلسيين القادمين بمراكبهم "**وينهضون منها إلى ما سواها... وللسلطان بها وجوه من الأموال كثيرة؛ كالخراج والجوالي والصدقات والأعشار؛ ومراصد علة المتاجر الداخلية والخارجية عنها والصادرة والواردة إليها بادية من البربر كبيرة، وفيها قبائل أموالهم جسيمة، وبها من الفواكه والسفرجل المعنق ما لا أزال أحكيه لحسنه وكثرته**"[1].

ومما وقفنا عليه أيضا في المصادر الجغرافية هو محاولة الجغرافيين إبراز الفروقات الإنتاجية بالتمييز بين ما للبادية وما للمدينة، وتوضيح مواطن الإنتاج وتوزيعها، وتنوع مصادر الثروة للحواضر الذي بالكاد يكون منتشرا في بوادي المدن لشساعة مساحة الزرع وغيرها من الأسباب.

ومن ذلك ما جاء عند ابن حوقل (ت380هـ/990م) عن مدينة بونة التي غلب فيها إنتاج الفاكهة ببادیتها الذي يُمد به الحاضرة[2]، وهي نفس الملاحظة للحميري (ت727هـ/1326م) عن مرسى الخرز التي هي تتسم بقلة الزرع، وإنما يجلب إليها قوتها من بوادي العرب المجاورة، كما يُجلب إليها الفواكه من بونة وغيرها لقلتها عندهم[3]، كما أن من أهم النباتات التي تزخر بها مدينة بجاية والموجودة على جبل أمسيون ويستفيد أهلها من فوائدها العلاجية للتطبيب "**البرباريس والقنطوريون، والراوند والأسفيوس**"[4]، وعن الانتعاش الاقتصادي لبسكرة فكانت تستفيد جنان المدينة من ماء النهر المجلوب إليها من أجل السقاية[5].

وذكر الوزان (ت 957هـ/1550م) عائدات البادية البرشكية التي تنتج الكثير من الكتان والشعير[6]، وعن المصادر الطبيعية لشرشال فإن المدينة تحيط بها أراضي فلاحية وُصفت بالجميلة والجيدة[7]، ونفس الرصد عن مدينة بونة؛ حيث يتم استثمار أراضي البادية التي يتم حرثها على مسافات واسعة طولا وعرضا للرفع من نسبة إنتاج القمح[8].

كما لم يغفل الجغرافيون فرصة الحديث عن الأسعار وخلق فرص المنافسة من أجل معرفة دواعي الحركية التجارية للحاضرة، فكلما كانت الأسعار في المتناول نالت حظوة الأكثر مبيعا للسلع، وما عثرنا عليه كنماذج ما ورد عند ابن حوقل (ت380هـ/990م) حول مرسى الدجاج أين ذكر الأشياء التي مسّها رخص الأسعار، ومما ذكره: الفواكه بمختلف أنواعها والمآكل المتعددة والمطاعم المنتشرة، بالإضافة إلى الشعير والقمح، وحتى المواشي والألبان إلى درجة إغراق الأسواق المجاورة للحاضرة بها نظرا لسعر التنافس، كما أقرّ بثروة الأشجار والثمر والتين خاصة عظيم الجسم الذي يحمل منه إلى البلاد النائية عنه[9].

بالإضافة إلى ما أخبرنا به صاحب "**الاستبصار**" عن مدينة مليانة التي عدّها من أخصب البلاد وكذا أرخصها أسعارا[10]، مثلما نعثر أيضا على نفس القيمة السوقية في مدينة دلس التي تتشابه في وصفهم لها مثل

مرسى الدجاج؛ إذ هي معروفة بالأسعار الرخيصة لمنتوجها من الفاكهة، وأسعارها التنافسية في المطاعم والمشارب إلى حد "**ليس يوجد بغيرها مثله**"[11].

ومما حفظته أيضا المدونة الجغرافية معايير تحديد الأسعار وحجم سعر بعض المعاملات، إذ ما يمكن استحضاره ماورد في خبر المجتمع الورجلاني عند صاحب "**الاستبصار**" حينما أطلعنا عن سعر حفر البئر الواحد الذي يكلف حفره بـ 100 دينار وأزيد نظرا لصلابة أرضهم، وبعد الماء الذي لا يدرك إلا على أزيد من 60 قامة، كما روى عن الدنانير الوارجلانية المشهورة الي تضرب بهذا البلد على نوع المرابطية[12]، وفي نفس السياق عن العائدات المالية من الثروة الطبيعية والحيوانية لمدينة بونة حسب البكري (ت 487هـ/1094م) فإن تقديرات مستخلصها "**غير جباية بيت المال عشرون ألف دينار**"[13].

بل وِفق الإدريسي فإن غنى تجار بجاية راجع إلى المبيعات الكبيرة للبضائع بالأموال التي وصفها بـ "**المقنطرة**"[14]، أين سمح موقعها الاستراتيجي الجامع بين البر والبحر المستقطب للقوافل التجارية والسفن البحرية من خلق حيوية تجارية، فأضحت مقصدا لمختلف التجار من مختلف الأمصار مغربا ومشرقا وشمالا وجنوبا، أين ذكر أن بعض التجار من المغرب الأقصى وكذا الصحراء والمشرق[15]، ونفس الوصف لحال أهل تلمسان أين كان الثراء في أكثر أهلها ما جعلهم أرفه حالا مقارنة بالمجتمع المحيط بمجالها[16].

وبالكاد نفس الوضع عاشته قسنطينة حسب الوزان (ت957هـ/1550م) التي ضمّت في جعبتها عددا كبيرا من التجار الذين يمتهنون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا، بالإضافة إلى تصدير بعضهم للزيت والحرير إلى نوميديا، وكذا الأقمشة، وفي المقابل تُستبدل هذه البضائع بالتمر والرقيق، بل أصبحت معروفة بالثمن البخس للتمر مقارنة بالمدن الأخرى إلى درجة أن تباع ثمانية أرطال أو عشرة من التمر بثلاث بايوتشيات فقط[17].

وإذا نقّبنا أكثر في متون الجغرافيين فإن مقادير المكاييل وطبيعة الموازين18 المستعملة والمتداولة كانت محل معاينة وتدقيق بالأرقام، ففي تيهرت كان مقدار المدّ الذي يكتالون به هو خمسة أقفزة ونصف قرطبية، وقنطار الزيت عندهم هو قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره فإنه قنطار عدل، ويُعادل رطل اللحم عندهم خمسة أرطال[19]، وبتنس يسمى كيلهم "**الصحفة**" والتي تعادل ثمانية وأربعون قادوسا، والقادوس يقاس بثلاثة أمداد بمدّ النبي ﷺ، وسعر رطل من اللحم هو سبع وستون أوقية، ورطل سائر الأشياء اثنتان وعشرون أوقية، ووزن قيراطهم هو ثلث درهم عدلٍ بوزن قرطبية، وجرى العمل عندهم بأن قيراط وربع درهم وصقل وحيتان مضروبة كلها، ودرهمهم اثنا عشر صقلية عددا[20].

وعن بعض المعاملات المقيّدة والتي سببت ضررا للمجتمع ما أخبرنا عنه الوزان (ت957هـ/1550م) عن حال سوق بونة وسلع مجتمعها وثرواتهم فقد استثمرت قبيلة مرداس العربية في زراعة الأرض وتملكت عددا معتبرا من الغنم والبقر والثيران، وتُنتج هذه الماشية الكثير من الزبد إلى درجة أن الأعراب يكادون لا يحصلون في المقابل على مال عندما يحملونه للبيع في عنابة، ونفس الأمر مع القمح والزبد الذي تقتنيه السفن المرحب

بها بحفاوة القادمة كل سنة من تونس وجربة ومن سائر السواحل، وكذلك من جنوة، أين يُعقد السوق يوم الجمعة كاملا قرب الأسوار خارج المدينة، كما أعرب عن حالة تذمر السكان من طريقة تسيير حقوق صيد المرجان الذي ليس لأحد الحق في صيده، بداعي أن الملك أكرى هذا الشاطئ للجنويين الذين استأذنوه ببناء قلعة تحصينية لصد القراصنة، وتفطنهم لحيلة الجنويين الذين استغلوا فيما سبق وجود هذه القلعة للاستيلاء على المدينة ونهبها[21].

فمن خلال ما سلف عرضه يظهر جليا أن المعطيات الاقتصادية حاضرة بمختلف بياناتها (الأنواع والأسعار والإنتاج والتسويق) حول مختلف حواضر المغرب الأوسط، ولا ريب في ذلك بحكم أن تتبع الجغرافيين كان منصبا حول الحيوية والحركية الاقتصادية باعتباره أساس قيام الحواضر.

2. المعطيات التاريخية الاجتماعية

لم يكن الوضع الاقتصادي للحواضر الوحيد محل معاينة الجغرافيين، بل رافقت متونهم مادة معرفية تاريخية مهمة عن بعض الجوانب الاجتماعية، ولعل ابن خلدون قد وضّح العلاقة التي تربط بين المناخ وطِباع المجتمع؛ فعنون المقدمة الرابعة من كتابه بـ: "**في أثر الهواء في أخلاق البشر**"، والمقدمة الخامسة بـ: "**في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع، وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم**".

ومما ورد في رصد الملامح الاجتماعية وصف أصول الساكنة بين المحلي والوافد، وطباعهم كالغلظة والشدة والمسامحة، وقيمهم كالكرم والجود، بل تصوير حتى صفاتهم الخَلْقِية، ومما عثرنا عليه في هذا السياق ما ورد عن مميزات ساكنة مرسى الخرز المتصفين بصفرة ألوانهم، بالإضافة إلى مظهر ممزوج بين المنظور العقدي والجمالي أين يتزينون بتميمة في أعناقهم[22]، وعن طِباع المجتمع الحمادي فإن أهلها متصفون بصحة المزاج[23].

بل لم تستثن الأوصاف المشينة من الرصد فقيل في وصف أهل تيهرت بـ "**الحمقى**"[24]، وأخبروا عن تكبر وشراسة وعجرفة أهل عنابة؛ وأضافوا تفسير سبب سذاجتهم أيضا وحسبهم أنهم يعظّمون ويقدّرون أناسا يسيرون في المدينة كالمجانين ويعتقدون أنهم أولياء صالحون[25]، وقيل عن سكان تنس بأنهم: "**أقوام فِظاظ غِلاظ**"[26].

وليس هذه فقط، بل في وجه آخر للنصوص الجغرافية نعثر على تركيزهم على إيراد الصفات المحمودة للمجتمعات والقيم السامية لهم، فوَصفوا جمال أهل وارجلان، وحسن نسائهم[27]، كما تحدثوا عن اللون الأسود الغالب على الناس والذي ينفون سببه للمناخ بل لأن: "**لهم جواري سوداوات يتسرون بهن، فيأتين بأولاد سود**"، وأضافوا وصف شهرتهم بالكرم والظرافة، كما يحسنون ضيافة الغرباء واستقبالهم استقبالا حسنا[28]، وعلى الرغم من إيراد الوزان لبعض الصفات المذمومة عن أهل بونة لكن في إحدى المواضع اعتبر: "**الرجال فيها ظرفاء**"[29].

ومما نضيفه من معلومات عن الخِصال ما قيل عن القسنطينيين بأنهم يتصفون بالشجاعة[30]، وعن أهل دلس بالبشاشة والمرح وإتقانهم للعزف على القيتار والعود[31]، وبخصوص قاطني برشك فقيل عنهم أنهم: "**أناس كثيرون خشنون (...)، أقوياء وأخفاء كالأسود**"[32]، وفي تفصيل قيم ساكنة نقاوس أقرّوا بغنى وكرم وأمانة سكانها، معتنين أيضا بلباسهم الذي شبهوه بلباس سكان بجاية المدنيين، مؤكدين كذلك على قيمة إكرام الغريب

وعابر السبيل، كما وصفوا جمال وبيض بشرة نسائهم، وسود ولمعان شعرهن، وأضافوا أن من: "**يرد على نكاوس يأسف على مغادرتها لفرط ظرف أهلها وحفاوتهم**"[33].

حتى عادات المجتمع نالت حظها من الرصد، فنعثر في وصف ابن حوقل على عادة للمجتمع الكتامي مفادها تضييف عابري السبيل وإطعام الطعام، مع الاستثناء عند بعضهم ممن يتخلّقون بخلق ذميم يتمثل في: "**بذل أنفسهم لأضيافهم على سبيل الإكرام، ولا يحتشمون من ذلك**"[34].

وعادة اجتماعية أخرى حفظتها النصوص الجغرافية فرضتها الأوضاع السياسية العامة بمدينة برشك وعلاقتها باقتصاد المعاش لمجتمعهم أين "**اعتادوا رسم وشم صليبي أسود على كف اليد والخد، وهي من عادات جميع الجبليين بالجزائر العاصمة وبجاية**"[35].

فمن خلال ما سبق نلحظ أن العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية نالت نصيبها من الرصد، وهذا راجع إلى علاقة الإنسان بالأرض واختلاف الطباع بحسب المناخ كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون، ومجموع هذه المعطيات تتيح الباحثين الانفتاح على مصدر آخر من المدونات بعيدا عن النوازل الفقهية والتراجم وغيرها لمعرفة أحوال وطباع وقيم وسلوك المجتمعات.

3.المعطيات التاريخية السياسية

من الأكيد أن المجالات خضعت لمختلف السلط السياسية باختلاف أنماطها، والمجتمع بحاجة إلى من ينظم شؤونه ويحدّد له حقوقه وواجباته، ولا يخلو أي مجال من تاريخ صنعه الإنسان من خلال محاولاته في تأسيس مدن وحواضر يستقر فيها للمعاش والحرص على تعميره، لهذا ظهرت الكثير من النزاعات والنَزَعات التي فرضت نفسها للانفراد بالمجالات والاستئثار بكرسي الحكم، وهو ما ورد في ثنايا المدونة الجغرافية؛ التي تمدّ بدورها للباحث السيرورة والصيرورة التاريخية لبعض الأحداث.

ومن المعلومات الواردة في هذا الشأن ما جاء عند البكري (ت 478هـ/1085م): حول قلعة بني حماد التي كانت في زمانه مستقر مملكة صنهاجة، مذكّرا باحتصان أبي يزيد مخلد ابن كيداد من إسماعيل بها[36]، بل توسع مؤلف مجهول (مغربي من القرن السادس) في إيراد تاريخها السياسي وحكامها المتواليين مخبرا بأنها دار مملكة بني حماد من صنهاجة، وهم ملوك إفريقية [أيام بني عبيد]، فلما رحلوا إلى بلاد مصر خلّفوا على أفريقية بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، فكان كذلك على طاعتهم ثم ولى بعده ابنه حبوس ثم ولى بعده ابنه باديس، ثم ولى بعده ابنه المعز الذي خلع طاعة الشيعة وقتلهم بإفريقية[37].

كما يمكن لنا أن نستشهد بتنوع المتن المعرفي في شقه السياسي ضمن ثنايا المدونة الجغرافية بما ورد عند ياقوت الحموي (ت626هـ/1228م) عن حاضرتي أشير وتيهرت كنماذج، فقال عن أشير أن زيري بن مناد الصنهاجي جد المعز بن باديس وملوك إفريقية بعد خروج المعز منها هو أوّل من عمّرها، وكان: "**زيري هذا في بادئ أمره يسكن الجبال، ولما نشأ ظهرت منه شجاعة أوجبت له أن اجتمع إليه طائفة من عشيرته فأغار بهم على من حوله من زناتة والبربر، ورزق الظفر بهم مرة بعد مرة، فعظم جمعه وطلَبَتْه نفسه بالإمارة،**

وضاق عليه وعلى أصحابه مكانهم فخرج يرتاد له موضعا ينزله، فرأى أشير وهو موضع خالي، وليس به أحد مع كثرة عيونه وسعة فضائه وحسن منظره، فجاء بالبنائين من المدن التي حوله، وهي المسيلة وطبنة وغيرها، وشرع في بناء مدينة أشير، وذلك في سنة 324 فتمت إلى أحسن حال، وعمل على جبلها حصنا مانعا ليس إلى المتحصن به طريق إلا من جهة واحدة، يحميها عشرة رجال، وحمى زيري أهل تلك الناحية (...) ، وتملكها بعده بنو حماد؛ وهم بنو عم باديس، واستولوا على جميع ما يجاورها من النواحي، وصاروا ملوكا لا يعطون أحدا طاعة، وقاوموا بني عمهم ملوك إفريقية آل باديس"[38].

أما عن أخبار تيهرت مقر قيام دولة الرستميين فإن الحموي عرّج على صمودها مدوّنا حول عدم خضوعها لطاعة صاحب إفريقية ولم تدخل في ظل سلطان الأغالبة، ثم تحدّث عن صاحبها وهو ميمون بن عبد الرحمان بن عبد الوهاب بن رستم، وكان: "**ميمون هذا رأس الإباضية وإمامهم، ورأس الصفرية والواصلية، وكان يسلم عليه بالخلافة، وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها**"، وأورد بعدها الصراع الحاصل بين الرستميين والأغالبة أين ذكر بأن أبا العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أرسل أخاه الأغلب الذي قام بتصفية عدد كبير من الرستميين "**وبعث برؤوسهم إلى أخيه أبي العباس، وطيف بها في القيروان، ونصبت على باب رقادة**" [39].

وعن تأسيس حاضرة المسيلة عرّج الحميري (ت727هـ/1326م) على ذكر مؤسسها وهو أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سماك الجذامي المعروف بابن الأندلسي، فلما أتمها أمّره الشيعي عليها، فلم يزل بها أميرا حتى مات في فتنة أبي يزيد، وبقي ابنه جعفر أميرا فيها، وولي بلاد الزاب كلها[40].

كما أخبرنا عن الأحداث التي شهدتها حاضرة باغاية خلال فترة الفتوحات الإسلامية فحدّد موقعها بالقرب من جبل أوراس الذي: "**قام أبو يزيد مخلد بن كداد النفزي الزناتي النكار على أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي، وبه كان مستقر الكاهنة، وكانت حين نهدت إلى حرب حسان بن النعمان حين أغزاه عبد الملك بن مروان إفريقية اجتازت على باغاية؛ فخربتها وأخرجت من فيها، وظنت أن حسان يريد أن يتحصن بها**"[41].

والمتفقد لكتاب الوزان (ت957هـ/1550م) فإنه مليء بالمعطيات التاريخية الوافية، ومما نستحضره ما أورده عن حكم حاضرة الجزائر التي تنازعتها تلمسان وبجاية ويروي مسار أحداث التبعية لقربها من المملكة فانحاز أهل الجزائر لملك بجاية لما أوجسوا منه خيفة ولعدم قدرة ملك تلمسان على انجادهم فبايعوه وأدوا إليه الخراج. وبعد ذلك سلحوا سفنا وتحولوا إلى قراصنة، فصاروا يغيرون على جزر بابسة وميورقة ومنورقة، وحتى شواطئ إسبانيا، لذلك أرسل الملك الكاثوليكي فردناند أسطولًا عظيمًا لحصار الجزائر، فشيدوا قلعة كبيرة مقابلة للمدينة وقريبة منها؛ بحيث كانت قذائف المدفعية تصل اليابسة، وتمر فوقها من سور إلى آخر، فاضطر أهل الجزائر إلى إيفاد سفارة إلى اسبانيا تطلب هدنة عشر سنوات مقابل بعض الخراج، فقبل الملك، وعاشوا في سلم إلى أن جاء بربروس وحاصر بجاية، لكنه لم يصل إلى نتيجة فاضطر بربروس إلى الفرار، فلجأ مع أربعين من

خواصه الأتراك إلى قصر جيجل، ومكث به فترة من الزمان هلك خلالها الملك الكاثوليكي، وأراد أهل الجزائر أن يفسخوا الهدنة، ويتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤدونه إلى الإسبان، فأرسلوا إلى بربروس ليكون قائدا لهم، نظرًا لقيمته وكفاءته في محاربة المسيحيين، وكان الخلاف قائمًا بين بربروس وأحد المتسلطين على إمارة الجزائر فقتله بربروس ونودي به ملكًا فضرب السكة وأذعن له الجميع السكان بالطاعة وأرسلوا إليه الخراج[42].

وعن الصراعات السياسية والمؤامرات الخسيسة بين حكام حاضرة تنس، تحدّث الوزان عن خضوعها الدائم لملك تلمسان فبدأ بذكر الأسرة المالكة بدءا من الملك محمد جد الملك الحالي[43]، الذي خلّف بعده ثلاثة أبناء وهم على التوالي: عبد الله، وأبو زيان، ويحيى، ثم أسرد خبر الدسائس بينهم أين فشل تآمر أبو زيان ويحيى على اغتيال عبد الله بالتعاون مع بعض الشخصيات من تلمسان، بحيث تم إلقاء القبض على أبي زيان والإلقاء به في السجن، ثم أُطلق سراحه بعدما طرد أبو حمو واسترجع ملكه، ثم تحدّث عن فرار يحيى إلى فاس محتميا بملكها، فطلبه أهل تنس وبايعوه بعدها ملكا لسنوات عدّة، "**وترك المملكة بعد وفاته إلى ابنه الشاب الذي طرده أيضا بربروس، واضطر إلى التوجه إلى اسبانيا عند الإمبراطور القيصر شارل الذي لم يكن حينئذ سوى ملك اسبانيا، فوعده بالمساعدة إلا أنه ماطله، فتنصر هذا الأمير هو وأخوه الأصغر، وأقاموا في اسبانيا يتقاضيان معاشا مهما من الإمبراطور، وآلت تنس إلى أحد الأخويين التركيين بربروس**"[44].

هذه عيّنة من المقتطفات التاريخية السياسية التي حملتها المدونة الجغرافية عن تاريخ حواضر المغرب الأوسط بدءا بتأسيسها والسلط السياسية المتعاقبة عليها، والمؤامرات والتصفيات والصراعات على كرسي الحكم، فهي بذلك تضيف إلى مدونة التاريخ السياسي دعمها التاريخي لمعرفة تطورها التاريخي.

4.المعطيات التاريخية الثقافية

حظي الشق الثقافي بنصيب من المساحة في المدونة الجغرافية وقدّمت خدمة جليلة على الرغم من أنها ليست في نفس مستوى كتب الرحلة والتراجم والبرامج وغيرها، لكنها تتضمن إفادات مهمة للباحثين حول الوضع الثقافي بحواضر المغرب الأوسط ومما نعثر عليه إيراد بعض أعلام الثقافة في المدن في مختلف فتراتها التاريخية.

فعن أقدم حواضر المغرب الأوسط التي تأسست بها الدولة الرستمية والتي وصفها اليعقوبي (ت284هـ/897م) بالمدينة العظمى، ذكر أعلامها وهم حكامها المنسوبين للفرس وهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم الفارسي، حيث تولى عبد الرحمن بن رستم شؤون إفريقية، "**وصار ولده إلى تاهرت فصاروا إباضية، ورأس الإباضية، فهم رؤساء إباضية المغرب، ويتصل بمدينة تاهرت بلد عظيم ينسب إلى تاهرت في طاعة محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم**"[45].

أما عن السمة الثقافية لبونة فهي ما إن تُذكر إلا ويشار إلى أغسطين فجاء قول البكري بأنها مدينة أقشتين العالم الذي يدين النصرانية"[46]، وهو ما نجده عند الوزان أيضا حينما ذكر أن فيها كان القدّيس: "**سان أو كيستان حين كانت خاضعة للقوط (الوندال)**"[47]، كما رصد الحموي علماء آخرين فيها وأبرزهم أبو عبيد الملك مروان بن

محمد الأسدي البوني الفقيه المالكي ذو الأصل الأندلسي، وهو من أعيان أصحاب أبي الحسن القابسي، وأقرّ بأن له كتابا في شرح الموطأ[48].

ومن نخبة حاضرة بَاغاية كما ذكر الحموي العالم أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الربعي الباغايي المقري، المكنى أبا العباس، والذي كان له نشاط بالأندلس التي دخلها سنة 376هـ/986م، حيث جلس للإقراء بقرطبة بالمسجد الجامع، كما اصطفاه المنصور محمد بن أبي عامر واستأدبه لابنه عبد الرحمن ثم عتب عليه فأقصاه، ثم اعتنى به المؤيد بالله هشام بن الحكم في دولته الثانية ورقّاه إلى خطة الشورى بقرطبة في مكان الفقيه أبي عمر الإشبيلي، وكان من أهل العلم والفهم والذكاء، وكان لا نظير له في علوم القرآن والفقه على مذهب الإمام مالك[49].

كما يُنسب إلى حاضرة متيجة أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن عيسى المتيجي الذي تناوله الحموي، وذكر درجة السماع لديه آخذا بطرق الرواية حيث سمع أبا الفضل عبد الحميد بن الحسين بن يوسف، وسمع منه أيضا ابن نقطة بالإسكندرية[50].

وفي عدّ الجغرافيين للإشعاع الفكري للحواضر، وعلى سبيل التمثيل فجاء عن أحوال بسكرة بأنها دار فقه وعلم، حوت في جعبتها العديد العلماء، بل حتى قراها أنجبت العديد من العلماء على غرار العالم الفقيه أبو عبيد الله الملسوني من قرية مَلسون[51].

ودائما عن الحياة الفكرية للمجتمع البسكري حسب الحموي (ت 626هـ/1228م) فقد أتى على ذكر المذهبية المالكية لعلمائها –ولا غرابة في ذلك–، كما أخبرنا عن العالم في النحو والكلام: "**أبو القاسم يوسف بن علي بن جبّارة بن محمد بن عقيل بن سوادة بن مكناس بن وَرَبليس بن هديد بن جمح بن حيان بن مستلمح بن عكرمة بن خالد، وهو أبو ذؤيب الهذلي ابن خويلد البسكري، سافر إلى بلاد الشرق وسمع أبا نعيم الأصبهاني وجماعه من الخراسانيين**"[52].

كما حظيت مدينة أشير بثلة من النخبة في مختلف فنون المعرفة وباعهم الطويل خارج مجال المغرب الأوسط مثلما ذكر ذلك الحموي أيضا، فترجم لسيرة "**الشيخ أبو محمد عبد الله ابن محمد الأشيري إمام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب خاصة والشام عامة، استدعاه الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد، وطلبه الملك العادل نور الدين بن محمود بن زنكي فسيره اليه، وقرأ كتاب ابن هبيرة الذي صنفه وسماه الإيضاح في شرح معاني الصحاح وجرت له مع الوزير منافرة في شيء اختلف فيه أغضب كل واحد منهما صاحبه، وردف ذلك اعتذار من الوزير وبره برا وافرا، ثم سار من بغداد إلى مكة ثم عاد إلى الشام، فمات في بقاع بعلبك سنة 561**"[53].

وبحكم الصلات التي ربطت بين تيهرت ووارجلان أين انتشر في هذا المجال أتباع الإباضية، فذكر الحموي (ت626هـ/1228م) بعض زعماءهم أين كان فيها العدد الكبير من حفاظ الحديث والثقات، وممن ينسب إليها أبو الفضل أحمد بن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي البزاز التاهرتي الذي روى عن ثلة من العلماء

منهم قاسم بن أصبغ وأبي عبد الملك بن أبي دكيم54، وعن وارقلان حسب الإدريسي (ق6هـ/12م) فهم "**وهبية إباضية نكار خوارج في دين الإسلام**"[55].

فمختلف هذه المعطيات التاريخية في شقها الثقافي يظهر المتن الجغرافي حاملا أنواعا كثيرة من النصوص في إيراد فنون المعرفة المنتشرة، وأهم العلماء من نخبتهم السياسية والعلمية، بالإضافة إلى محاولة الجغرافيين التأكيد على مرجعية المجتمعات، وكل هذا يخدم الباحث عن التاريخ الثقافي لمدن المغرب الأوسط.

خاتمة

تتيح المدونة الجغرافية للباحث معرفة العديد من زوايا القراءة للمدونة الجغرافية، أين تُمدّنا بالكثير من التفاصيل المساعدة على تشكيل صورة أوضح عن قيمة هذا الصنف من الكتب.

بيّنت النصوص الجغرافية التطور الذي حصل بمختلف المجالات عبر أمد طويل، وبمجمل هذه النصوص تشكل البناء التاريخي المتسلسل للمجال.

طغى النشاط الاقتصادي مقارنة بالمجالات الأخرى من ناحية الذكر.

رغم نمطية الوصف الجغرافي إلا أنها تحوي في لججها معطيات تاريخية مهمة لمختلف مجالات الحياة.

اتفاق في وصف الجغرافيين للحواضر بتنويع مظاهر الرصد حسب ما توفر لديهم من معطيات عبر المعاينة والمشاهدة أو كنقول ممن سبقوهم. ثمة اختلاف من جغرافي إلى آخر في طريقة الوصف الجغرافي ومتن المادة ومجالات الوصف. تباينت منهجية الجغرافيين بين الوصف الإجمالي والوصف التفصيلي.

فلا غنى للباحث عن مثل هذا الصنف من المدونة أثناء التنقيب عن المساهمة الحضارية لمختلف مدن المغرب الأوسط، فتنوعت مادة الجغرافيين المبثوثة في مصادرهم لمختلف المجالات عبر مختلف الأزمنة عن حواضر المغرب الأوسط؛ فرصدوا الأنشطة الاقتصادية والأحوال الاجتماعية والحياة السياسية والنبوغ الثقافي.

الهوامش:

1. ابن حوقل: **المسالك والممالك**، مطبعة بريل، ليدن، 1872، ص 52
2. ابن حوقل: **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص77.
3. محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت ،1984، ص538.
4. الحميري: المصدر السابق، ص81.
5. المصدر نفسه، ص 113.
6. الحسن بن محمد الوزان الفاسي: **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ،1983، ج2، ص 32-33.
7. المصدر نفسه، ج2، ص 34.
8. المصدر نفسه، ج2، ص 62.
9. ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص77.
10. مؤلف مجهول: **كتاب الاستبصار وعجائب الأمصار**، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص171.

11. محمد بن عبد الله الشريف الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2010، ص 259.
12. مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 224.
13. أبو عبيد البكري: **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص55.
14. الإدريسي: المصدر السابق، ص 260.
15. المصدر نفسه، ص 260.
16. المصدر نفسه، ص 248.
17. حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 56.
18. للاطلاع أكثر على أنواع المكاييل والموازين المعروفة في الحضارة الإسلامية عموما وفي المغرب الإسلامي خصوصا؛ والتي يمكن عدّ بعضها، على غرار: المد، الصاع، الصحفة، القدح، الوبية، القفيز، الثمن، الوسق، الربع، القسط الإردب، المطر، الحفنة، القادوس، القلّة، القلبة، عمورة، القنقل، القليلة، الكر ... إلخ. ينظر: محمد بن موسى وعبد الجبار عماري: **لمحة تاريخية عن نظم المقاييس والمكاييل والموازين في المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط**، "مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية"، ع 3، مج 7، الجزائر، 2023م، ص 365 – 382. أيضا: خالد بلعربي: "**التعامل النقدي والأوزان والمكاييل**"، ضمن كتاب: النظم التجارية لدويلات المغرب الأوسط من ظهور الرستميين إلى نهاية الزيانيين 160 – 962هـ / 777 – 1554م، تحت إشراف: فاطمة بلهواري، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، 2014، ص 133 – 190.
19. البكري: المصدر السابق، ص 69.
20. البكري: المصدر السابق، ص 62. ونفس الوصف بالكاد ورد عند الحموي حولها: "**لم يزل الباقون في تنس في تزايد ثروة وعدد ودخل إليهم أهل سوف ابراهيم، وكانوا في أربعمائة بيت، فتوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم، وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذي فيها اليوم، ولهم فيها كيل يسمونه الصحفة؛ وهي ثمانية وأربعون قادوسا، والقادوس ثلاثة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم، ورطل اللحم بها سبع وستون أوقية، ورطل سائر الأشياء اثنتان وعشرون أوقية، ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة**".
21. الوزان: المصدر السابق، ج2، 61 – 62.
22. الحميري: المصدر السابق، ص538.
23. الحموي: المصدر السابق، ج4، ص390
24. زكريا بن محمد بن محمود القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص169. فمن الإجحاف التعميم على مجتمع بالصفات المذمومة خاصة نتيجة سلوك من ثلة قليلة، ولعل ما برّر به القزويني وصفه هذا ما ساقه من حكاية مفادها: "**حكي أنه رفع إلى قاضيهم جناية فما وجدها في كتاب الله، فجمع الفقهاء والمشايخ فقالوا بأجمعهم: الرأي للقاضي، فقال القاضي: إني أرى أن أضرب المصحف بعضه ببعض، ثم أفتحه فما خرج عملنا به فقالوا: وفقت، افعل، ففعل ذلك فخرج: سنسمه على الخرطوم، فجدع أنفه**".
25. حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 61 – 62.
26. المصدر نفسه، ج2، ص 35.
27. الحميري: المصدر السابق، ص 600.
28. حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 136 – 137.
29. المصدر نفسه، ج2، ص 61 – 62.
30. المصدر نفسه، ج2، ص55–60.
31. المصدر نفسه، ج2، ص42.
32. المصدر نفسه، ج2، ص 32–33.

33. المصدر نفسه، ج 2، ص 53.

34. ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص 91. وورد عند الإدريسي دون تصريح منه عن سند وصفه هذا: "**وقبيلة كتامة تمتد عمارتها إلى أن تتجاوز أرض القل وبونة، وفيهم كرم وبذل طعام لمن قصدهم أو نزل بأحدهم، وهم أكرم الرجال للأضياف، حتى استسهلوا مع ذلك بذل أولادهم للأضياف النازلين بهم، ولا تتم عندهم الكرامة إلا بمبيت أبنائهم من الضياف ليتلقوا منهم الإرادة، ولا ترى كتامة بذلك عارا، ولا ترجع عن ذلك البتة ... وأعف قبائل كتامة وأقلهم فعلا منهم لهذا العمل من كان في جهة سطيف؛ لأنهم من القدم لا يرون ذلك ولا يستجيزونه ولا يستحسنون فعل شيء من هذه المنكرات**". الإدريسي: المصدر السابق، ص 269 – 270. عالج الباحث رضا بن النية هذا القول والحكم مقارنا بين الروايات ومحللا لسياقاتها. لمزيد من الاطلاع عن موضوع القيم لدى قبيلة كتامة، ينظر: رضا بن النية: **إكرام الضيف في المجال الكتامي أثناء الدعوة الإسماعيلية – بين العوائد المحلية والتجاذبات السياسية**، مجلة المعيار، مج24، ع 51، الجزائر، 2020، ص 635 – 655.

35. حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 33. وحسب الوزان فإن سبب الوشم هو: "**أن عدداً من البلدان والشواطئ والجبال كانت خاضعة للقوط، وأن كثيرا من المغاربة تنصروا، وقد أمر ملوك القوط ألا يجبى أي خراج من المتنصّرين، فكانوا كلهم إبان أداء الخراج يدّعون أنهم مسيحيون، ولما كان القوط يجهلون لغة البلاد وعاداتها، ولا يتمكنون من التمييز بين المتنصّرين ومدعي التنصر، فإنهم أمروا المسيحيين بالوشم بهذه الصلبان، وعندما فقد القوط نفوذهم، عاد الكل إلى الدين الإسلامي، غير أن هذه العادة بقيت عبر العصور**".

36. البكري: المصدر السابق، ص49.

37. مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص167-168.

38. شهاب الدين أبو عبد الله ابن عبد الله ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، لبنان، 1977، ص 202-203.

39. الحموي: المصدر السابق، مج2، ص7-9.

40. الحميري: المصدر السابق، ص558.

41. المصدر السابق، ص 76.

42. حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص37 – 39.

43. يقصد محمد السابع المعروف بالثابتي نسبة إلى جده أبي ثابت محمد الخامس وقد تولى الملك عام 902هـ/1496م إلى أن توفي عام 909هـ/1503م. أنظر عبد الرحمان الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ط2، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر – دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ج2، ص 195 وما بعدها.

44. حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 35 – 36

45. أحمد بن أبو يعقوب اليعقوبي: **البلدان**، مطبع بريل، ليدن، 1860، ص143.

46. البكري: المصدر السابق، ص 54.

47. الوزان: المصدر السابق، ج2، 61 – 62.

48. الحموي: المصدر السابق، ج1، ص512.

49. المصدر نفسه، ج1، ص 325.

50. المصدر نفسه، ج5، ص53.

51. مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 173.

52. الحموي: المصدر السابق، مج1، ص422.

53. المصدر نفسه، مج1، ص 202-203.

54. المصدر نفسه، مج2، ص7-9.

55. الإدريسي: المصدر السابق، ص 296.